الدكتور يحيى الجمل

وزير شئون مجلس الوزراء والتنمية الإدارية الأسبق

□ الذين يقفون ضد الديمقراطية يحطمون أنفسهم.

□ كل الاحزاب فى مصر.. تأثيرها محدود للغاية على جماهير الشعب.

□ الحزب الوطنى: احتمى بالسلطة ولم يصنع هو السلطة.

□ الوفد: يتجه إلى الماضى وليس إلى المستقبل.

□ التجمع: لا وجود له على الساحة الجماهيرية.

□ الأحرار: لايمثل أى شىء على الإطلاق.

□ الأمة: حزب للايجار.. وجريدته تؤجر لمن يدفع أكثر.

□ عبد الناصر كان إعصارا.. والذين يرونه بشرا محصنا- مخطئون.

□ مرحلة مبارك تمثل الجدية والرغبة الحقيقية فى حل مشاكل الجماهير.

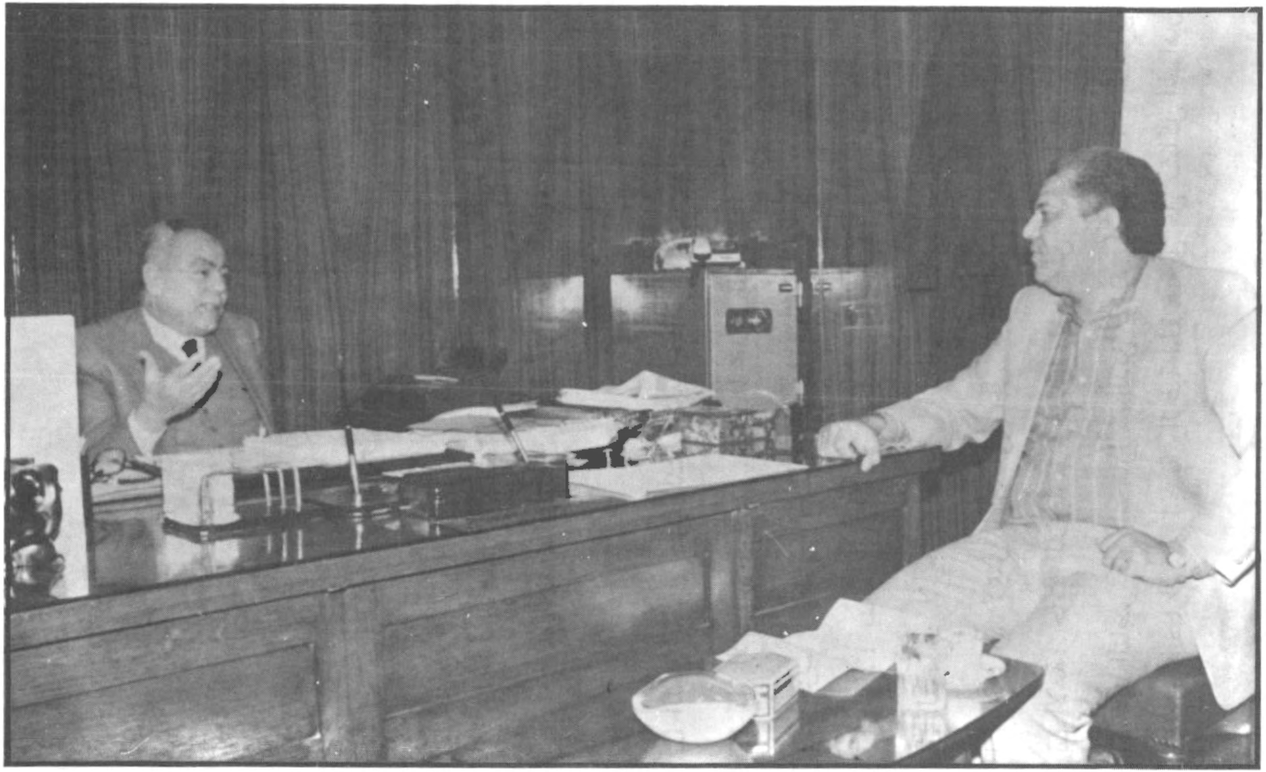

الدكتور يحيى الجمل – وزير شئون مجلس الوزراء والتنمية الإدارية الأسبق

هو واحد من قادة طلائع العمل السياسي.. وكادر هام من كوادره.. أحد فقهاء القانون ووزير شئون مجلس الوزراء ووزير التنمية الإدارية الأسبق.. والأستاذ الجامعي.. وعضو المجلس القومي للتعليم وعضو المكتب الدائم لاتحاد الحقوقيين العرب وعضو مجلس أمناء المنظمة العربية لحقوق الانسان.. تعددت المناصب التى تقلدها.

اتسم الحوار معه بخصائص هامة تأتى فى مقدمتها نوعية القضايا التى طرحت فيه وقيمة الآراء التى ضمتها الاجابات ثم مستوى الصراحة بل أقول الشجاعة التى طرح بها الدكتور يحيى الجمل آراءه.. فكثيرمنها كان يتجاوز خطوط تماس السلامة ليتوغل فى مناطق أقل مايقال عنها انها ملغومة.. خاصة ماجاء فى توصيفه للأحزاب المصرية وفى تقييمه للحياة السياسية فى مصر، وما طرحه حول قضية التيار الدينى.. أسبابه ووسائل علاج موجات التطرف.. وكانت قضية الديمقراطية واحدة من المحطات الهامة فى الحوار.

فى حوارى مع الدكتور يحيى الجمل- شرقنا.. وغربنا.. وانتهى بنا المطاف على ضفاف منطقتنا العربية بعد أن حظيت أرض الكنانة بالنصيب الأوفر من تحليلاته وقراءاته فى خريطتها السياسية.. وتقييمه للمناخ السياسى. والاجتماعى بها.

مساحات عميقة من الغوص فى أعماق القضايا الأكثر سخونة أعترف انه كان خلالها واسع الصدر للغاية، كما أعترف انه عندما كنت اتوقف لأنبهه بعمق الغوص وربما خطورته كان يقول بثبات.. اكتب كل ما جاء على لسانى ولا تبالِ.. فأنا أتحمل مسئولية كل ما أنطق به.

بقى أن أقول إن الرجل كما رأيته خلال جلسة طويلة معه.. وحوارى الممتد.. شاهد على العصر.. والعصر الذى أعنيه يبدأ منذ ٢٣ يوليو ٥٢ ويمر بمراحل رئاسية ثلاث.. وحتى اليوم.. وإلى أن يشاء الله.

الأحزاب المصرية

كانت البداية مع الاستاذ الدكتور يحيى الجمل حول تقييم الاحزاب المصرية.. قال:

فى رأيى أن الأحزاب الموجودة حاليا اتصالها بالجماهير محدود.. وتأثيرها على قواعدها الشعبية محدود.. وامكانياتها أيضا محدودة.. لأنها فى الأغلب الأعم عبارة عن صحف أكثر منها أحزابا.. رغم وجود كوادر فنية عالية ليست سياسية والكادر الفنى ليس بالضرورة أن يكون كادرا سياسيا.. فرغم وجود كوادر فنية عالية فى بعض الأحزاب.. وبالذات فى الحزب الوطنى.. فإن تأثيرها وإرتباطها بالجماهير محدود باستثناء التيار الدينى الذى يكاد يكون هو التيار الوحيد الذى له صلة بالجماهير.

فإذا نظرنا مثلا لحزب الوفد لرأيناه يتجه إلى الماضى.. وليس إلى المستقبل وحزب التجمع لاوجود له على الساحة الجماهيرية.. وكل مالديه الآن مجموعة من الكوادر السياسية.

وهناك أيضا حزب لا أدرى ماإسمه الصحيح.. إن كان الصباح أو المساء.. تقصد.. حزب الأمة.. لأحمد الصباحى.

– لعله هو ماتقول.. ولاأدرى هل هناك من يعلم من الجماهير فى مصر.. بوجود هذا الحزب.. والغريب أن هذا الحزب قد وجد على الساحة بدون هدف أو معنى.. مما يثير التساؤل والعجب والاحساس بالمرارة.

أنا أعتقد أن هذا الحزب يمكن أن نسميه بـ«حزب للايجار» وجريدته جريدة للإيجار.. ولمن يدفع أكثر.

أما حزب الأحرار.. فهو حزب لايمثل أى شىء على الاطلاق.. ورغم قسوة هذا القول.. فإنها الحقيقة بكل مرارتها.. ولو تصورنا اننا قد نزعنا مظلة السلطة

عن الحزب الوطنى.. وعرينا الأحزاب الأخرى من مزايداتها السياسية.. ونظرنا للصورة فلن نجد شيئا.

وبرغم أن آرائى هذه سوف تعرضنى للكثير من المشاكل.. فإننى أقول شهادتى للتاريخ واتحمل مسئولية ما أقول.. مصر اليوم تموج بكثير من التيارات.. ولابد أن يعى الجميع وجود هذه التيارات ويعترفون بها. ومازلت أزعم.. وأقدر ان تيار الوسط الوطنى.. الساكن والهامد.. هو التيار الغالب فى مصر.. لكنه للأسف لايزال يبحث عن حزب.. وما زال يبحث عن قيادته.. ولا يريد أن يتحرك.. ولا يوجد من يريد أن يحركه أو يقوده.

الحزب الوطنى يفتقد التأثير

أتدخل لأقول للدكتور يحيى الجمل:

ولكن هناك من يقول بأن الحزب الوطنى لم يؤثر فى الشارع المصرى.. ولم يلتحم بالجماهير وأن الجماهير لم تتفاعل معه.. كيف كان ذلك.. برغم وجود من هم فى مكانة ومكان د. يحيى الجمل.. بين صفوف هذا الحزب؟

فيقول: بمنتهى الصراحة.. والوضوح.. الذى نقوله.. أو يقوله.. الناس جزء منه صحيح – للأسف – من ناحيتين: صحيح من ناحية أن الحزب الوطنى لديه فعلا مجموعات من المفكرين الأثرياء بعلمهم وفكرهم.. وكوادر رائعة فى كل مجال.. وأيضا ماتقوله صحيح.. من أن التحام الحزب بالجماهير.. التحام ضعيف لماذا؟

– أنا أرى أن للمسألة سببا أساسيا وهو أن الحزب احتمى بالسلطة ولم يصنع هو السلطة.. وأن الحزب تدثر بالحكم.. ولم يصنع هو هذا الدثار.

الأحزاب الحقيقية هى التى تصنع الحكم.. والحزب الوطنى كامتداد للاتحاد الاشتراكى.. ولحزب مصر.. فالاتحاد الاشتراكى – كما نعلم – نشأ فى ظل السلطة.. وأوى إليها واحتضنته السلطة.. وعبر عنها.. وكذا كان الحال بالنسبة

لحزب مصر، وأنا أقول هذا كمفكر.. وليس كسياسى عامل.. فأنا أعتز بصفتى كمفكر عن صفتى كسياسى.. أو أى صفة أخرى.

والأحزاب كلها فى مصر.. وليس فقط الحزب الوطنى.. تأثيرها محدود للغاية على جماهير الشعب.. بل لا يكاد يوجد لأيها تأثير.

وإذا سألتنى عن دورى فى كل هذا؟

- أقول لك.. اننى أعترف بتقصيرى.. فأنا رجل أكاديمى لعلى اخطأت الطريق عندما تصورت أن باستطاعتى أن أقدم عملا فى مجال الحركة الحزبية كحركة.

والآن.. أنا فى حساب مع نفسى.. وأفكر.. وربما استطعت بالكلمة أن أؤثر أكثر من أى طريق آخر.. ولقائى مع طلابى.. وقرائى.. قد يعوض عندى هذا الشعور بالتقصير إلى حد ما.. ولقد اعترفت فى أحد كتبى.. بأن خير ما أقدم للناس هو قراءاتى وكتاباتى وعصارة فكرى.. وأن مساهمتى فى أمور أمتى إنما هى مساهمة فكرية وليست مساهمة حركية أو عملية.

أنا مع الحرية

وحول زيادة عدد الاحزاب يقول الدكتور الجمل:

- أنا مع فتح الأبواب.. وتركها للرأى العام كى يصنفها.. ويختار الجيد ويرفض الردىء.. فأسبانيا مثلا - بها أكثر من ثلاثين حزبا.. تستوعب كل التيارات، ومع ذلك لايظهر على سطح الاحداث إلا ثلاثة أو أربعة أحزاب هى الاحزاب القوية. وهى الأحزاب المؤثرة والتى لها وجود على الساحة السياسية.

افتح الباب لكل التيارات.. هذا هو الحل الوحيد اليوم.. نستطيع أن نرسم خريطة سياسية واضحة لمصر.. ولنترك الحكم للرأى العام.. وللمنافسة الحقيقية بين هذه الاحزاب. ولننزع مظلة السلطة عن أى حزب.. ونبعد أيضا قهرها لأى

حزب.. وساعتها سنرى «اللعبة الديمقراطية» كما يسميها الغرب فى أوج كمالها.. ودقتها، فالدور دوار.. وما لم يكن الدور دوارا فلن تنجح اللعبة الديمقراطية، وفى ظل ما يقال له الحزب القومى أو الحزب المسيطر.. أوالحزب الملهم.. أو أى مسميات.. لا توجد ديمقراطية.. الديمقراطية توجد عندما توجد أحزاب متقاربة.. وهذا من الممكن أن يحدث فى مصر.

وتصورى أن مصر يجب أن يكون فيها ثلاثة تيارات أساسية: التيار الأول.. امتداد لثورة ٢٣ يوليو.. والتيار الثانى للوفد.. والتيار الثالث تيار دينى مستنير.. ولايمنع ذلك من وجود تيارات سياسية كثيرة بجانب التيارات الثلاثة الأساسية.

ولو تركنا الفرصة للشيوعيين ليكونوا حزبا.. وللمتطرفين الدينيين ليكونوا حزبا.. فلن يضر هذا.. بل سيجعل المناخ السياسى صحيا أكثر، وهذا ما تمارسه أوربا وما تنفذه فى سياساتها.. ولقد رأيت فى أوروبا تيارات مهووسة دينيا.. وتتمتع بكافة الحريات فى التعبير عن نفسها. لندع الحكم للناس.. ولا يخيفنا حكمهم.. فلو أعطينا لأنفسنا – كحكام.. الحق فى الحكم على الناس.. فقد بدأنا طريق الخطأ.. وبدأنا نبعد عن الديمقراطية.. الناس هى الحكم.. وهى التى تستطيع أن تختار.. والناس فى مصر قبل ثورة يوليو.. كانت تختار حزب الوفد.. وكان معها الحق.

واليوم – أنا – كأستاذ.. لما أدرس الحياة الدستورية فى مصر.. أميل أكثر لمنطق الوفد مما كنت قبل عام ١٩٥٢.. لأن الوفد حقيقة وحتى عام ١٩٤٩ كان هو الذى يقف مع الدستور.. ويقف مع الشعب ضد القصر.. وعندما دخلت الملكية الزراعية الكبيرة حزب الوفد.. وتصالح الوفد مع القصر.. فقد الوفد شعبيته ومعناه.. وفقد سنده لدى الجماهير.

وفى هذا الوقت كان محتما أن تقوم الثورة.. وقامت الثورة فى ٢٣ يوليو والذى لاشك فيه أن الثورة مع كل سلبياتها.. قد فجرت من القضايا فى هذه المنطقة.. وأحدثت آثارا ضخمة فى هذه المنطقة.. مما لا يتسع المجال هنا لذكره، لو أن عبد الناصر عام ١٩٥٦ – بعد العدوان الثلاثى– أنشأ حزبا.. وترك المجال

مفتوحا لاحزاب أخرى تقوم فى مصر.. لتغيرت أمور كثيرة فى المنطقة كلها.. ولكان عبد الناصر قد حقق لنفسه سندا ديمقراطيا حقيقيا.. بأغلبية حقيقية.. لكن للأسف.. حدثت أمور كثيرة جعلته لايفكر فى هذا الإتجاه.. ولايختار الطريق الصحيح.

وفى رأيى أن هذا الوقت كان هو أنسب الأوقات للتحول نحو الديمقراطية ولكن هذا التحول قد تأخر.. وتأخر كثيرا.. حتى عندما حاول السادات ان يغير مسار الأمور.. ويعدل دفتها لتتجه للديمقراطية.. كان الوقت متأخرًا جدًا.

وأشهد لله.. وللتاريخ.. أن الرئيس السادات سيدخل التاريخ المصرى من أوسع أبوابه.. أقول ذلك رغم إختلافى الشديد معه خاصة فى أواخر أيام حياته وحكمه.. ودخوله التاريخ المصرى ناتج عن قرارين له.. قرار حرب أكتوبر عام ١٩٧٣.. وقرار بدايات الانفتاح الديمقراطى.. وهما قراران يشهدان بشجاعة وجرأة السادات - رحمه الله - وبرغم أن قرار الانفتاح الديمقراطى للرئيس السادات كان يمتاز بكثير من الفوقية، وليس أدل على ذلك مثلا من وقوفه فى مجلس الشعب.. ليصرح بأن المنابر.. قد أصبحت أحزابا.. هكذا بمجرد تصريح.

الأحزاب لاتقوم بهذه الطريقة أبدا.. ولكن ليس معنى ذلك أن نغمطه حقه.. فهو بلا شك قد فتح الطريق أمام الديمقراطية.. وهذا مايحسب له. أعود فأقول أنا مع كل صوَر الحرية.. وأنا من المؤمنين بأن الحرية هى حركة التاريخ.. وإن الحرية هى القيمة الكبرى للانسان.. وأنه فى ظل الحرية تورق كل الأوراق.. وفى غياب الحرية يذبل كل شيء.

التجمع الليبرالى

قلت للدكتور يحيى الجمل: ما زالت واقعة انفصالك عن حزب التجمع.. وانضمامك للحزب الوطنى تمثل علامة إستفهام كبيرة.. ماذا كانت دوافعك وراء ذلك.. وهل تغيرت اتجاهاتك السياسية نتيجة لهذا التحول؟

رد قائلا: إذا أذنت لى.. أرجو أن نقسم سؤالك إلى شقين:

الشق الأول: الخاص بالانفصال عن حزب التجمع.. ثم ترشيح نفسى فى أبريل عام ١٩٨٧ لقد قدمت استقالتى لحزب التجمع فى مايو ١٩٨٢ وظللت خمس سنوات بعيدا عن أى عمل حزبى.. فالاستقالة من حزب التجمع لم يكن لها أى صلةِ ولارابطة بدخولى للحزب الوطنى.. فالجمع بين الأمرين فى سؤال واحد.. قد يكون فيه شىء من عدم الانصاف للمسئول.. كما قد يحدث لبس عند البعض.. لأن صيغة السؤال تفيد بأننى خرجت من التجمع لأنضم للحزب الوطنى.. وهذا غير صحيح على الإطلاق.. ولم يكن فى ذهنى - قط - يوم أن تركت التجمع أن أنضم لأى حزب.. بالعكس.. ولعلك تذكر.. انه عقب استقالتى من التجمع.. صاحب ذلك ضجة صحفية سواء داخل مصر أو خارجها فى الوطن العربى كله.. وكان موقفى الواضح والصريح هو محاولة ألا أجرح فى حزب التجمع.. وحرصى الشديد على تأكيد بأننى لم أخرج من التجمع لأنضم لأى حزب آخر، وحرصى الشديد بالتأكيد على أننى فى مرحلة دراسة طويلة وتأمل.. وصرحت بكل ذلك فى مختلف الصحف والمجلات المصرية والعربية.

وأظن أنه بعد الأحداث الاخيرة.. قد وضح السبب الذى دعانى لترك التجمع.. وأصبح موقفى من الحزب له مايبرره فكريا.. وعلميا.. وأيديولوجيا.

وأود هنا.. أن أقول.. إنه من وقت مبكر.. كتبت فى نقد للماركسية فى أحد كتبى عن الانظمة السياسية المعاصرة.. والذى صدر عام ١٩٦٨ وفى أحد كتبى أيضا التى صدرت قبل ذلك عام ١٩٦٦ باسم الاشتراكية العربية.. انتقدت فى هذين الكتابين الماركسية نقدا علميا.. شديدا.. ومطولا.. وموقفى من الماركسية واضح كموقف أى إنسان له تفكير قومى.. ومؤمن بالقضية القومية.. ويؤمن بإنتماء الإنسان القومى وليس بانتمائه الطبقى.. وان كنت لاأنكر الانتماء الطبقى.. ولكننى أرى أن الصراع الطبقى كان هو المحرك الأول للتاريخ ومازال يحركه حتى يومنا هذا.. ولعل مايحدث حاليا فى العالم وخاصة أوروبا الشرقية يؤكد أن البعد القومى بعد أساسى فى التاريخ وحركته.

وأنا الآن لست بصدد إعادة تقييمى للماركسية ونقدى لها.. ولكنى أريد أن أقول إن موقفى من الماركسية موقف واضح ومحدد وليس مجهولا لمن قرأ لى أو عرفنى فى السنين الماضية.

وعندما قام حزب التجمع.. قام على أساس حقيقى للتجمع.. ولقد قلت مرة.. إن تجمع الأمل.. لم يكن هو تجمع الواقع.. فتجمع الأمل.. كان هو التجمع الذى يضم كثيرا من الفرقاء الوطنيين بالتوجهات المختلفة.

والحقيقة أن عبد الناصر عندما أنشأ منظمة الشباب كان يأخذ بهذه الفكرة وهى فكرة التجمع الليبرالى.. الذى يضم الماركسيين.. والإتجاهات الدينية.. والإتجاهات القومية.. وكان د. أبو المجد يمثل الإتجاه الدينى، وكنت أنا أمثل الإتجاه القومى، وكان د. محمد الخفيف - رحمه الله - يمثل الإتجاه الماركسى.. وكانت تجرى فى هذا المناخ حوارات ثرية وخصبة.. المهم أننى عندما دخلت حزب التجمع.. دخلته من هذا المنظور.. وبطبيعى.. أميل إلى ما اسميه بالوسط الوطنى الحقيقى.. ولقد قلت ذلك وعبرت عنه فى كتابات كثيرة.

بعد فترة - فى حزب التجمع - وجدته (وليس هذا نقدا - ولا لوما ولا تثريبا). إنه قد أصبح أحادى الإتجاه.. صوتا.. ونفسا.. ومطبخا.. ومن كل النواحى، عندئذ احسست أننى غير قادر على الاستمرار.. وفكرت طويلا فى كيفية الخروج من الحزب.. ورأيت أن أسلم طريق.. هو أن أخرج فى صمت.. لأننى اعتقدت دائما.. أن المجموعة التى تكون حزب التجمع فى أغلبها مجموعة وطنية مخلصة، وان التجمع من حقه على أن يظل قائما.. فقدمت استقالتى بهدوء شديد ولم يعلم أحد بهذه الاستقالة.. لمدة أكثر من خمسة عشر يوما.. فقد أرسلت خطاب الاستقالة إلى الأخ خالد محيى الدين.. وحاول خالد وكثير من الإخوان.. فى نفس المكان الذى نجلس فيه معا الآن فى هذه الحجرة.. أن يثنونى عن رأيى.. ولكنى قلت لهم اننى قد وصلت لقرارى هذا بعد قناعة تامة بينى وبين نفسى.

واكب هذه الأحداث.. لو نتذكر.. وفاة الرئيس السادات - رحمه الله - فى الحادث المشهور.. ثم جاء الرئيس حسنى مبارك بتوجه جديد، وشعرت فى هذه

الظروف أن التجمع غير مدرك لهذا التغيير الجديد من أساسه.. فإلى جوار الخلاف الايديولوجي وإلى السيطرة الماركسية من الماركسيين فى الحزب.. أيضا.. موقف الحزب فى بدايات حكم الرئيس مبارك.. كل هذه العوامل.. النظرية.. والعملية.. والواقعية.. جعلتنى اتخذ هذا الموقف.. وأصر عليه.

وبعدما عرف خبر انفصالى عن التجمع.. ونشرته جريدة الاهرام قامت ضجة.. وأدليت بحديث شهير لمجلة المصور مع مكرم محمد أحمد تطرقت فيه لكل هذه القضايا.. ونفيت بشدة محاولة ربط خروجى من التجمع بانضمامى لأى حزب من الأحزاب.. كما أكدت نفس هذه المعانى فى كتاباتى التى كنت أنشرها فى مجلس المصور فى ذلك الوقت. ثم مضت خمس سنوات.. لم أفكر خلالها لحظة واحدة فى الإنضمام لأى حزب.. رغم أننى فوتحت من كثيرين إما مباشرة أو بطريق غير مباشر.. من أكثر من اتجاه.. وحزب.. وطبيعى هناك أحزاب من المستحيل تواجدى فيها.. ومع ذلك حدث أن اتصل بى مسئولون فيها وعرضوا على الانضمام اليها.. ولكن النقاش لم يأخذ وقتا.. وحسم فى ساعته وزمانه.

ثم فى مرحلة من مراحل عام ١٩٨٧.. راجعت نفسى.. بعد نقاش موسع مع صديقى وزميلى الدكتور محمد حلمى غر.. عميد كلية التجارة ورئيس جامعة القاهرة الأسبق.. وهو صديق عزيز له فى نفسى مكانة، نتيجة لهذا الحوار الحميم بينى وبينه انتهيت إلى أنه قد يكون من الأفضل أن اعود للعمل العام ثانية.. وأن تكون هذه العودة متمشية مع الانتخابات.

وكما قلت لك.. أنا أصنف نفسى فى تيار الوسط الوطنى.. وأعتقد حقيقة أن حسنى مبارك يمثل هذا التيار.. ولقد اختار الرئيس حسنى مبارك أن يكون على رأس حزب من الأحزاب المصرية.. وتصورت فى وقت الأوقات أن هذا الحزب يتسم بقدر كبير بسمات تيار ٢٣ يوليو الذى يمثل الوسط الوطنى الحقيقى.. وتصورت اننى قادر مع مجموعة أخرى من الأصدقاء.. ان نحرك هذا التيار داخل هذا الحزب.

من هذا المنطلق.. دخلت الانتخابات.. وخضت معركة - قاسية - بكل

المقاييس نازلنى فيها أعضاء من الحزب الوطنى.. وكانت الدائرة التى دخلت لأمثلها من أصعب الدوائر الانتخابية.. ويكفى أن أدلل على صعوبتها بأن منافسى فى هذه الدائرة كان د. مصطفى الجمل - رحمه الله - ولولا ظروفه الصحية التى كان يمر بها وقت المعركة الانتخابية لكان لها شأن آخر.. فهو من الرجال الذين أحترمهم وأقدر كفاءتهم.

وبالإضافة لهذا المنافس القوى.. خاض المعركةأيضا حزب الوفد والاتجاه الدينى وأيضا الحزب الوطنى.. ومع ذلك فان الادارة العلمية للمعركة الانتخابية والتى ساعدنى فيها مجموعة كبيرة من الأصدقاء المثقفين.. وعلى كل المستويات.. وحرصى على الالتحام بالجماهير.. فلم أدع شارعا لم أتحاور مع سكانه.. كل هذا.. أهلنى للفوز بالدائرة الانتخابية فى معركة انتخابية على أعلى مستوى.. علمى وجماهيرى.. وهذا ما أعتز به، وهكذا دخلت الحزب الوطنى بواسطة الانتخابات ومؤملا أن أحرك تيار الوسط الوطنى الحقيقى.. فى حزب يرأسه حسنى مبارك.. كان هذا أملى، ولكنى بصراحة أقول لك إن الأمل لم يتحقق ربما لعجزى.. وربما لاستحالة الهدف.

عبد الناصر كان إعصارا

ويبدأ الدكتور يحيى الجمل فى تقييم مراحل ثورة يوليو الثلاث: عبد الناصر والسادات ومبارك قائلا: جمال عبد الناصر.. كان إعصارا.. ومثل أى إعصار ضخم فى التاريخ أزاح ودمر.. كثيرًا من الأمور التى كانت مستقرة فى حياتنا.. عبد الناصر.. أزاح الفروق الطبقية البشعة التى كان يعانيها المجتمع المصرى.. عبد الناصر.. أزاح حكم القلة المسيطرة على كل شىء فى مصر وأنا دائما أبدا أذكر لعبد الناصر حادثين كان لها تأثير شديد فى وعلى إزاء عبد الناصر كزعيم.. وازاء ثورة يوليو.. فأنا بطبعى.. أشعر بعمق الفكرة الليبرالية.. وامتداد جذورها بداخلى.. ومن الكلمات التى أذكرها فى خلاف سابق صار بينى وبين د. فؤاد مرسى وهاجمنى فى جريدة الطليعة.. وقال إن محور تفكيرى هو قضية الحرية،

فقلت له: يا دكتور فؤاد إننى أعتز بذلك أيما إعتزاز.. فهى ليست تهمة، ورغم إيمانى الشديد بعمق الفكرة الليبرالية وتغلغلها فى ثنايا فكرى وعقلى.. فإن هذين الحادثين لا يغربان عن ذاكرتى مهما حدث، فأنا كرجل ريفى من قرية صغيرة من قرى مصر.. له عم عمدة لهذه القرية.. ويحتكر منصب العمودية فى تلك القرية أهله وعشيرته من الأب للجد.. وحدث أن ابنى وهو طفل.. ضرب طفلا صغيرًا فى القرية، فما كان من هذا الطفل إلا أن جمع عددًا من الأطفال أقرانه وانتظروا ابنى ليضربوه.. وسمعت والدتى رحمها الله بما حدث من ضرب ابن ابنها فكبر عليها ذلك.. فبعثت فى طلب أهل الولد الذى ضرب ابنى.. وعاتبتهم فى ذلك.. فقالت لها والدة الطفل.. هل تستكثرين على ابنى أن يضرب حفيدك لمجرد انه ابن ابنك.. الله يخلى عبد الناصر.. لقد ساوى بين رءوس الشعب.

فلما ذهبت فى زيارة لأهلى فى البلد قالت لى أمى.. هل رأيت ما فعله بنا عبد الناصر الذى تحبه.. وسردت علىَّ مقولة السيدة والدة الطفل وتوقفت أنا طويلا أمام هذه الحادثة أتأملها.

والحادثة الثانية والتى ربما كانت أعمق دلالة من الأولى.. إننى كنت مسافرا للاسكندرية ويصاحبنى مسجل كلية تربية جامعة عين شمس.. فى ذلك الوقت واسمه الأستاذ عبد الفتاح العبد.. وهو أحد أبناء عائلة العبد الكبيرة بشبرا النملة.. أو ما كانوا يسمون بالعائلات الاقطاعية.. وحدث أن تعطلت بنا السيارة أمام شبرا النملة.. فكان أن نزلنا ضيوفا على عائلة العبد بشبرا النملة.. وبعد الغداء حدث نقاش كالذى يحدث عادة بين الضيوف والمضيفين فى دوار العمدة الذى هو عم عبد الفتاح العبد.. وسألته عن الأحوال فإذا به يقول: أى الأحوال تسأل عنها.. الأحوال سوداء غبراء وما حدث وأرويه هنا.. كان فى بداية الستينات.. فلما استفسرت منه أكثر عما سود الأحوال وغبرها، قال: إن الناس قد بدأت تعرف. وأدهشنى قوله، وهل فى معرفة الناس سواد، قال: إن المعرفة التى أقصدها أن الفلاح لم يعد يعرف حدودا للأمور.. والفلاح قديما مهما كان يضرب أو يهان كان من الصعب عليه أن يرفع عينيه فى أسياده.. واليوم إذا قلت للفلاح «بم» يرد عليك «طرش الدم».

هذه الحادثة جعلتني أقول لنفسي.. لابد أن نعترف بأن عبد الناصر قد أحدث تغييرًا كبيرًا فى هذا المجتمع.

ولا أكتمك.. أن السيد زكريا محيى الدين كان قد كلف من قبل عبد الناصر بتشكيل وانشاء منظمة الشباب.. وكان يبحث عن قيادة للمنظمة من شباب أساتذة الجامعة.. وكنت أحد الذين فكر فيهم زكريا محيى الدين.. باعتبارى أمثل التيار القومى.. وكنت خائفا ومترددا.. وأتساءل بينى وبين نفسى عن مصيرى ومصير أمثالى من المؤمنين بقضية الحرية والديمقراطية مع هذه المنظمة بعد حادث شبرا النملة الذى قصصته عليك.. قبلت الترشيح لقيادة منظمة الشباب والاشتراك مع مجموعة المؤسسين لهذه المنظمة.. وهم- كشهادة للتاريخ الذين مازالوا يقومون بعمل سياسى حقيقى فى مصر حتى الآن.. هم.. أو تلامذتهم.. فهم حقا كوادر سياسية بكل معنى الكلمة، وإذا كانت منظمة الشباب قد إنتهت بصورة تهريجية فى النهاية فإن بدايتها كانت على أسس.. أنشأت كوادر سياسية ما زالت موجودة فى كثيرة من مواقع الانتاج حتى اليوم ومنهم الوزراء.. والاطباء.. والمحامون.. وغيرهم.. وخاصة تلك الكوادر التى ظهرت فى الفترة من ١٩٦٤ – ١٩٦٧.. لأنه بعد عام ١٩٦٧ حدث تغيير جذرى فى كل شيء فى مصر.. وفى العقل العربى كله.

عبد الناصر.. بعد عدد من القرون.. سوف يذكره التاريخ حيث لاتذكر مئات بل آلاف من الأسماء التى نسمع بها وعنها كل يوم الآن.. وسيبقى اسم عبد الناصر هو الاسم الوحيد الباقى لقرون عدة مقبلة.. فعبد الناصر ليس حاكما.. ولكنه كان مفجر ثورة.. برغم ماله.. وماعليه.

عبد الناصر.. لا يمكن – حقا – أن نعفيه من مسئولية ما حدث من قهر لبعض الأشخاص.. لكنه أيضا هو الذى رفع القهر عن ملايين المصريين.. وعن ملايين العرب.

عبد الناصر.. لا يمكن أن نعفيه مما حدث عام ١٩٦٧.. لكنه هو الذى بنى الجيش الذى دخلنا به معركة ١٩٧٣.. الذين يرون أن عبد الناصر – خيرا محضا.. والذين يرون عبد الناصر – شرا محضا – يقعون فى خطأ كبير.

السادات أصابه الوهم

ويمضى الدكتور يحيى الجمل قائلا: أما الرئيس السادات عندما نتحدث عنه فلابد أن نفرق بين ثلاث مراحل.. الأولى: إلى الحرب ونهاية عام ١٩٧٥.. لا أكاد أرى للرجل فى هذه المرحلة إلا حسنات.

بعد يناير ١٩٧٧.. اختل الميزان فى يده.. فقد بدأ يخاف من القليل من الديمقراطية التى سمح بها وتحققت قبل يناير ١٩٧٧ وبدأ يتراجع عنها.. واصابه نوع من الوهم الذى يصيب الحاكم وبالذات فى العالم الثالث.. ويتصور معه أنه صاحب الحقيقة وحده.. وأنه يعرف كل شىء.. وأن لا أحد يعرف ما يعرفه هو وهذه كارثة.. فالحكام فى العالم الثالث.. نتيجة أنهم يسمعون دائما مايحبون ولايسمعون مايجب أن يسمعوه يتكون لديهم وهم بأنهم العالمون ببواطن الأمور.. وأن لاشىء يخفى عليهم وأنهم قادرون على كل شىء.. وهذا ماكنا نراه فى الحكم الشمولى.. فى أوروبا الشرقية.. ولنأخذ ما حدث فى رومانيا مؤخرا - مثلا فقبل حدوث الانقلاب بشهر.. كنا نرى صور مظاهرات الترحيب الشعبية بشاوشيسكو تملأ صفحات الجرائد والمجلات بنسبة ٩٩٪ وبعد ماحدث.. بيومين رأينا الصور فى نفس الجرائد والمجلات تحكى النقيض بنسبة ٩٩٪ أيضا وهذا يدل على أن أجهزة الاعلام تلعب دورا مضللا للحقيقة خاصة فى هذه البلاد.

والرئيس السادات - بعد عام ١٩٧٧ داخله هذا الوهم.. أيضا عدل عن المساحة البسيطة من الديمقراطية التى سمح بها.. وماحدث فى سبتمبر لا يمكن - حقيقة - أن يغتفر.

نأتى إلى قضية السلام.. لا أحد يستطيع أن ينكر أن السلام له أولوية وهو مهم.. وربما كان الخلاف على ذلك فى أسلوب السادات وطريقة إخراجه لعملية السلام.

فمثلا الرئيس مبارك متمسك بالخطوط الأساسية للسلام.. لكن إخراجه

لأسلوب وطريقة التعبير عن السلام مختلفة تماما.. فأسلوبه هادىء ذو نفس حضارى.. محاور.

ولقد أوصلت علاقة الرئيس السادات بأمريكا إلى ما إنتهى إليه.. فقد نفخوا فيه حتى صاروا هم أنفسهم عبئا عليه.. كما شارك الأقزام الذين إلتفوا حوله فى التعجيل بنهايته بما زينوا له من أعماله.. وأقواله.. وكلنا يعرف أن النفس البشرية ضعيفة وأن الإنسان بطبعه يكره النصيحة اللحوحة مهما كانت مخلصة.

مبارك - مرحلة الجدية

ويواصل الدكتور يحيى الجمل - حديثه فيقول: أما المرحلة الثالثة لثورة يوليو.. فتمتاز بسمة رئيسية وهى الجدية.. ففيها رغبة حقيقية وجادة لإحداث تطوير لمصر.. لكن المشاكل كثيرة.. واحيانا تكون فرق العمل أقل كفاءة فى مقابل مستوى المشاكل التى نتعرض لها. والإيمان بالديمقراطية لابد أن يكون واضحا فى أذهاننا.. إنه ليس منة.. أو منحة من الحاكم.. وينبغى لنا ألا نخاف من الديمقراطية.

وإن مرحلة حسنى مبارك من ثورة يوليو.. هى مرحلة الجدية.. والرغبة الحقيقية فى انجاز شيء.. لحل مشاكل الجماهير.

وعموما.. اسمح لى أن أقول لك.. إن التاريخ لايكتب إلا حيث ينتهى المتحاورون. فنحن نستطيع بكل وضوح أن نتكلم عن مرحلة عبد الناصر.. ومرحلة السادات.. أما الرئيس حسنى مبارك.. فهو رجل قريب من قلبى.. ومن عقلى.. ولكنى لا أحب أن أدخل فى زمرة المهللين.. والمطبلين لأحد أيًّا كان.. ومن هنا فلندع الحكم على حسنى مبارك بعد عمر طويل له.. وفى مرحلة مقبلة.. لنقيمه كما قيمنا غيره.. بكل أمانة.. وبوضوح.. على أن ذلك لايمنعنى أن أقول بكل ثقة وأمانة وأكرر.. أن مرحلة حسنى مبارك تعنى الجدية.. وأدعو وأقول له.. لامبرر إطلاقا من الخوف من الديمقراطية ولا مبرر مطلقا لتحجيمها.. بل لابد

من مزيد من الإيمان بالديمقراطية.. ومزيد من الإيمان بالجماهير..ولا أريد أن أقول بمزيد من تعميق الديمقراطية.. فلا أحد يعمق الديمقراطية.. فالديمقراطية لايعمقها إلا الشعوب.. وأنا أعتقد أن الرئيس مبارك عندما اختار الديمقراطية.. كان اختيارا لارجعة فيه.. واختيارًا أكيدًا.. وصادقا.

التطرف الديني.. لماذا؟

ويتحدث الدكتور يحيى الجمل عن نظرته الخاصة لقضية التطرف الدينى.. أسبابه.. والحلول التى يراها فيقول:

- إن رؤيتى الخاصة فيما يتعلق بالتيار الدينى تتخلص فى الآتى:

أولا: الدين جزء أساسى من تكوين الانسان.. ونحن فى مصر صنعنا الأديان قبل أن تنزل علينا من السماء، ومعنى ذلك أن عنصر الدين هام وضرورى، بل إنه جزء لا يتجزأ من تكويننا البشرى.. ولابد أن نعى هذه الحقيقة جيدا.

ثانيا: أعتقد أن فى جوهر الإسلام رسالة للحرية والتسامح والمحبة.. والعدل الاجتماعى وأيضا للديمقراطية.

ولنا أن نتساءل بعد كل هذه المقدمة.. ما أسباب جذور التطرف التى نراها.. وتطل برءوسها اليوم..

فى رأيى أن أسبابها عديدة.. ومن أبسط الأمور.. أن نذكر سببًا واحدًا.. لنفهم بُعد باقى الأسباب.

أسبابها.. أحيانا.. انحرافات نفسية.. وأحيانا ضغوط اقتصادية.. فعندما يرى البعض مايتمتع به البعض الآخر من بذخ غير طبيعى.. ومبالغ فيه.. ويرى نفسه محروما من أبسط حقوق الحياة، ويدخل وسط هذا الجو النفسى شخص يبشر المحروم بحل مشاكله.. عن طريق الدين.. وأنه سوف يحقق له جنته الموعودة.. من الطبيعى والمنطقى أن تنقاد هذه القلة المحرومة للداعية الذى ينشر فكره

باسم الدين.. ويكون التأثير عليها سهلا.. وميسورا.. والايقاع بها من أيسر الأمور.

الإسلام.. برىء من شبهة التطرف.. فلا تطرف فى الإسلام.. ولننظر إلى بدايات الإسلام الأولى.. وهى قمة نقائه وعفويته.. وعظمته.. سنجده كان دين حب.. وتسامح.. وعدل.. وحوار.. فالإسلام ينادى بقول الله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ إذن فهو دين حضارى بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معان.

والإسلام جاء بعد عديد من الأديان السماوية التى سبقته، كان العقل البشرى فيها لم ينضج بعد.. وعندما جاء الإسلام كان العقل البشرى قد نضج.. فكان لابد أن يخاطبه بما يتلاءم مع هذا النضج.. واتبع فى ذلك أسلوب الحوار.. والحكمة والدعوة الحسنة.. والعدل الاجتماعى والديمقراطية.

والآن.. أصبحت المشكلة التى تفرض نفسها على الساحة أن هذه الجماعات أصبحت تحاور الناس بمنطق السلطة.. وهذا خطأ.. ولا يجوز.. فلو أنهم تركوا الحوار مفتوحا بينهم وبين الناس.. ولو أن السلطة الحاكمة تركتهم يعلنون عن أنفسهم لتغير الأمر على نحو عكسى.

الحل هو أن تتركهم السلطة الحاكمة ليخرجوا إلى النور.. ولتترك التيار الدينى يكون حزبا يتحدث بلسانه.. ولتدع الحكومة هذا الحزب يواجه المشاكل.. ويحاول حلها. عندئذ ستتكشف أوراق هؤلاء المدعين الزائفة.. وسيسقط شعارهم الذى رفعوه باسم الدين.. فالعمل هو الحل الأساسى الذى يفرز لك الفكر الدينى المستنير من المدعى.. ومعروف أن الفكر الدينى المستنير فكر بناء وهو جزء من تكويننا النفسى والحضارى والاجتماعى.. وهو مطلوب، لكن التفكير الدينى المغلق.. المتطرف.. هو فكر غريب علينا.. وهو تفكير هدام غريب على الإسلام.. والمسيحية.. وكل الأديان السماوية.

ويواصل الدكتور يحيى الجمل قائلا:

- ليست كل الأسباب هى هذين العاملين فقط.. ولكنى بدأت بها لأهميتها.. ولكن هناك أسبابا أخرى.. فمثلا.. لا نستطيع أن نتجاهل الخطأ الذى ارتكبته الثورة فى بدايتها عندما اتخذت أسلوبا عنيفا فى مواجهة التيار الدينى.. فالعنف يولد العنف والحوار يخلق الحوار.. والرصاص يؤدى لمزيد من الرصاص.. والبذاءة تلد بذاءات.

○ قلت للدكتور يحيى الجمل ولكن بعض وزراء الداخلية السابقين كانوا قد اتخذوا أسلوب الحوار بينهم وبين هذه الجماعات، ولكن للأسف لم يسفر الحوار عن شيء.

- من قال ذلك.. بالعكس.. عندما بدأ هؤلاء الوزراء الحوار عكس ذلك أثرا طيبًا، وهنا ينبغى أن نذكر هذه الفضيلة للواء حسن باشا وزير الداخلية الأسبق فرغم العدوان الذى وقع عليه مؤخرا.. فإنه نجح إلى حد كبير فى إقامة حوار بينه وبين هذه الجماعات والتيارات الدينية.. وبينه وبين المعارضة الحزبية.. وأيضا المعارضة الدينية.. لكنه للأسف لم يستمر هذا المنهج من وزراء الداخلية وأرجو أن يعود هذا المنهج الآن.. منهج الحوار والمجادلة بالتى هى أحسن.

وللدكتور يحيى الجمل رؤية خاصة فيما يتعلق بالمعالجات التى تتم لمواجهة قضية التطرف الدينى يلخصها فى قوله:

بصراحة.. أنا لست مع أسلوب القمع.. والإرهاب.. وأنا مع الحوار.. فكل ما يؤدى إلى مزيد من الحوار.. أنا معه.. وكل ما يؤدى إلى مزيد من فرقعة طلقات الرصاص.. أنا ضده وإذا لم يؤد الحوار إلى نتائج فيكون ذلك دليلاً على عجز المتحاورين.